صورة المغرب

في عين الفوتوغرافي الأجنبي

جعفر عاقيل

المعهد العالي للإعلام والاتصال

يمثل المنتج الفوتوغرافي الأجنبي حول المغرب عموما والبطاقات البريدية تحديدا، موروثا بصريا مغربيا بامتياز. فبغض النظر عن المرجعيات الثقافية للفاعل الفوتوغرافي والفارق الزمني لإنتاج هذا المنتج؛ يمكن توظيف هذه المادة الفوتوغرافية، بعد تفكيك عناصرها وإعادة تركيبها وفق منظورات واستراتيجيات جديدة، لِمَدِّنا ببعض الجوانب الخفية في الحياة والثقافة المغربيتين علاوة أنها قادرة، بوصفها توثق لفترات تاريخية مهمة من حياة المغاربة، أن تسهم في إعادة كتابة تاريخ المغرب.

سنحاول في عرضنا، قراءة بعض الفوتوغرافيات التي اتخذت من المغرب وثقافته موضوعا لها وذلك بالكشف عن بعض التصورات والتمثلات التي رسمتها عن أرض المغرب سواء تعلق الأمر بالإنسان أو الطبيعة أو العمران أو اللباس أو علامات أخرى. إن الغاية الأساس من قراءتنا، هي إبراز بعض المنطلقات الفكرية والجمالية والفنية والتقنية لهذا الخطاب وكيفية اشتغاله وأيضا إبراز بعض الإواليات المستعملة من طرف فوتوغرافيي هذا المنتج البصري للتأثير في أذهان المشاهدين؟

تقديم المتن

يمكن تصنيف المتن/ موضوع القراءة، إجرائيا إلى ثلاث خانات أساسة: الأولى خاصة بالطبيعة والثانية بالعمران والثالثة بالإنسان. ويمكن تقسيم هذه الخانة الأخيرة بدورها إجرائيا إلى فوتوغرافيات جنس البورتريه وأخرى تنتمي إلى جنس فوتوغرافيا اليومي. وتنتسب هذه الفوتوغرافيات إلى حقب تاريخية مختلفة، حيث تنتمي تارة لنهاية القرن التاسع عشر وتارة لبداية القرن العشرين وأحيانا أخرى لنهايته أو لبداية القرن الواحد والعشرين. كما تم التقاطها في مناطق جغرافية مغربية متعددة إما بالأبيض والأسود نتيجة إكراهات تقنية أو اختيارات جمالية أو بالألوان الساخنة وهي النسبة الأكثر

حضورا في السوق. كما تتخذ طريقة تداولها أسنادا كثيرة: صور تُزَيِّن كتب أو ملصقات أو كاتالوگات أو شكل بطاقات بريدية؛...الخ. وتحتل هذه الأخيرة، أي البطاقات البريدية، مكانة الصدارة سواء من حيث الطبع والنسخ أو من حيث التداول والاستهلاك.

المغرب في نظر الفوتوغرافي الأجنبي

تشكل البطاقة البريدية مادة دسمة لتناول موضوع تمثلات صورة المغاربة في عيون الفوتوغرافي الأجنبي. وهذا يرجع في تقديرنا أولا لتداولها بشكل كبير في السوق وثانيا لتمتعها بقدرة سريعة على الامتداد والانتشار وثالثا لقدرتها على تكثيف المسافات بحكم دور الجسر الذي تلعبه في تقريب المسافة الفضائية والتخييلية مابين المرسل والمرسل إليه، وأخيرا لأنها صورة صلبة ومتماسكة بخلاف الصورة التلفزية، على سبيل المثال، التي تتميز بالسيولة la fluidité. هذه بعض العناصر أو المكونات التي تحاول بشكل أو بآخر صور المتن الارتكاز عليها من أجل إقناع المشاهد بقيمة استهلاكها والأبلغ من ذلك توهيمه أن ما تنقله مساحاتها المُصوَّرة هو حقيقة خالصة.

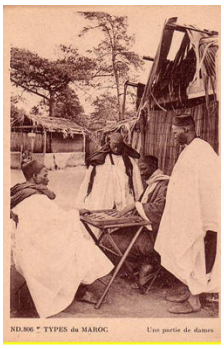

إن جل صور المتن موضوع القراءة وباختلاف مرجعية مصوريها، يحكمها رابط مشترك هو الانتقاء القصدي للمغرب العتيق والتقاط الشخوص في وضعيات موسومة بالعزلة. إن التفكير في التقاط صور عن التناقضات والتحولات التي تجبل بها الفضاءات الجديدة للمدن المغربية في علاقتها بالإنسان المغربي، لا تسكن متخيل فوتوغرافي هذه البطاقات البريدية بالحجم والمكانة التي يأخذهما اللباس التقليدي أو وشم على الوجه مثلا في صوره. وهذا يؤكد رغبة الفوتوغرافي في التقاط صور خالية من النتوءات والتجاذبات والالتباسات. إنه يعمل جاهدا على انتقاء صور مسطحة وتقريرية وباردة. فجلّ فوتوغرافياته تعيد إنتاج جمالية المنمط أو الكليشي سواء على مستوى الفضاءات الملتقطة أو الوجوه المصوَّرة أو الألبسة والأشياء الممثلة، أما الحركة الظاهرية التي تحاول إقناعنا بها فوتوغرافياته فهي لا تتجاوز حدود الإثارة دون بلوغ درجة الاستفزاز الجمالي والفني اللذين يثيران الأسئلة الإبداعية. إن

الطبيعة البصرية التي تتأسس عليها هذه الصور لا تتعارض مع الأنماط والقوالب والأشكال والمحتويات البصرية المتواضع عليها في مثل هذه الأسناد، أي أناس في وِضْعات مستنسخة، أثر التعب والمعاناة بادية على وجوههم، تأطير غالبيتهم من بعيد في حالات ومناظر طبيعية وأمكنة تفوح برائحة التنميط، جعل حضورهم في المساحات المصوَّرة حضورا يؤثث فقط الفضاء المصوَّر. أما الحالات النادرة التي تقترب فيها شبحية الآلة من الموضوع وتحديدا من الوجه، كما هو حال الصور التي تجسد النساء المغربيات، يكون الغرض منها إثارة عين المشاهد واستفزازها على اعتبار أن الوجه يتميز بحظوة تمثيل الجسد، ثم لأن أي افتتان بجمال الوجه يعتبر ضمنيا افتتانا بالجسد الذي يحضنه، ولأن الوجه كان ولايزال يشكل مركز الغواية بامتياز في الجسد. وهذا ما يدفعنا للقول، بأننا إزاء فوتوغرافي مُتَلَصِّص ولا يخصص وقتا كبيرا لالتقاط صوره، كما لا يعير اهتماما خاصا لموضوعاته من أجل التأمل فيها ومحاورتها. فالاندفاع الذي عوَّدنا عليه فوتوغرافي الروبورطاجات وكذا الاقتراب من الموضوع الفوتوغرافي بغية التواصل معه أو نقل تفاصيل وجهه وتقاسيمه منعدم تماما في منتجاته لأنه تعوَّد على نهج الأسلوب السهل في إنجاز فوتوغرافياته، وذلك باستعمال عدسة الزُّوم والنظرات البانورامية والاقتصار فقط على توظيف ضوء النهار. وكلها عناصر تساعده على بلوغ هدفه وتحقيق استراتيجيته دون بدل أي مجهود بدني أو تواصلي؛ بل يمكن القول إن هذه البورتريهات أنجزت من خلال "هجومات ضد أناس لا حول ولا قوة لهم أمام سلطة الكاميرا: أطفال أو نساء أو شيوخ،...الخ. غالبا من البادية".

إن قَدَر الثقافة المغربية مع البطاقات البريدية، مطبوع بإعادة استنساخ الموروث الفوتوغرافي الذي أنتجه الإثنوغرافيون عن المغرب في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. بحيث شكل المغرب وثقافته، لعقود طويلة ومن خلال وسائط متعددة، موضوع إعجاب واستكشاف ودراسة وتخييل بالنسبة للآخر/ الغرب. كما تميزت هذه العلاقة تارة بالنظرة الغرائبية وتارة أخرى بالنظرة الاستشراقية وفي لحظات قليلة بالنظرة الموضوعية. أي أنه في كل مرة تُأَسَّس فيها هذه العلاقة، يُنظر للثقافة المغربية ليس بعيون مجردة أو بأخذ مسافة من زحم الصور والحكايات والذكريات التي رسمتها في الأذهان القراءات المختلفة لكتب العسكريين وصور الفنانين والكتاب المستشرقين. وإنما ينظر إليها بتمثيلات تعيد إنتاج أو تصف، وبمستويات متفاوتة، الثقافة المغربية باعتبارها مادة للافتتان والطرافة وباعتبارها متحفا يخزن أحلام الآخر واستيهاماته. إن مختلف التفاعلات التي نسجها هذا الآخر مع الذات المغربية لا تقر بل لا تحاول أن تبدل أبسط مجهود للحديث عن وجود ثقافة مغايرة عن ثقافتها. لكن، ليس بالمعنى الفولكلوري أو السطحي للكلمة، وإنما كخصوصية ثقافية مترعجة وغير

مرتاحة للوضع الذي هي عليه حاليا وبأنها في حالة ديناميكية مستمرة وليس ثابتة وبأنها تحمل في ثناياها تناقضات وفلتات ورجات كباقي الثقافات التي تعرف متغيرات في مسيراتها سواء كانت هذه التحولات إيجابية أو سلبية، بمعنى آخر مقاربة موضوع الخصوصية الثقافية المغربية بالدفاع عن تمييزاتها ونقدها في الآن نفسه حتى لا تتجرد من الكونية.

استـــنتاجات أولى

يخضع إنتاج البطاقات البريدية، موضوع المتن، عموما إلى تسنين يلعب فيه كل من تكوين الفوتوغرافي وذوقه وشروط التداول والاستقبال أدوارا كبيرة. ثم إن لهذا التسنين تأثيرا مباشرا في بناء صرح البطاقة البريدية سواء على مستوى الأشكال الفنية أو الجمالية أو انتقاء الموضوعات. وهذا ما يفسر كيف أن المغرب، رغم تعدده الثقافي، يمثل في هذه الصور باعتباره متحفا يحتفظ بمجموعة من المآثر الطبيعية والتاريخية ثم البشرية.

إن المجتمع الذي تصوره لنا هذه البطاقات البريدية، مجتما طريف سواء من حيث ساكنته أو لباسه أو عمرانه. ويبرر الفوتوغرافي مقاربته هذه بالافتتان بجمال المغرب الطبيعي والثقافي وكذلك بالرغبة في إظهار أشياء وعادات صار يفتقدها الفرد في الحياة اليومية المعاصرة. لكن، ما لا يُفْصِحُ عنه مُنتِج هذه الصور أثناء الحديث عن مُنتجاته الفوتوغرافية؛ أن فوتوغرافياته تروج لقيم وعلاقات وسلوكات ذات اتجاه واحد، تأخذ فيها العلامات الغرائبية والمغرب العتيق مكانة الصدارة وتغييب فيها الحياة المغربية المعاصرة بشتى تناقضاتها وإكراهاتها وأحلامها، أي مختلف علاماتها.